

سحابة فوق المدينة

الشيخ محمد صالح المنجد

النبة:

إن من أنعم الله عليه بنعمة، فلا ينبغي له أن يتسخطها لشيءٍ عارضٍ آذاه منها، بل يسأل ربه رفع ذلك العارض مع بقاء النعمة، ويستحب طلب انقطاع المطر عن المنازل، والمرافق إذا كثرت، وتضرروا به، ولكن لا يشرع لذلك صلاة مخصوصة، أو اجتماع في الصحراء، فلو قيل: هل تشرع صلاة مثل صلاة الاستسقاء للفيضانات؟ الجواب: كلا، لم يرد ذلك، ولكن يشرع الدعاء، ومن ذلك دعاء الخطيب في خطبة الجمعة، إذا أصاب الناس أذى بفيضانات، أو أعاصير ونحو ذلك.

عناصر الخطبة:

- دعوة مستجابة.
- رفع الأيدي في الدعاء وتكرار الدعاء ثلاثاً.
- وأقبلت سحابة الخير.
- اللهم حولينا ولا علينا.
- لا تشرع الصلاة للفيضانات.
- أيها المضطر تعلم.

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

دعوة مستجابة:

فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأيده بالمعجزات الظاهرة البينة، الدالة على صدقه، وهذا من تأييد الله لنبيه، ونصرة الله لنبيه، وبيان الله للعباد مكانة هذا النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت معجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة، يراها الصحابة فتزيد إيمانهم، كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مستجاباً، فيفرع إليه الناس في الشدائد، يطلبون منه أن يدعو ربهم، وكانوا يدعون الله، ويلتمسون إجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى، عن أنس رضي الله عنه أنه قال: "أصاب الناس سنة -أي جذبٌ- وقحط- على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة، إذ أتى رجل أعرابي من أهل البدو، فدخل المسجد من باب كان وجاه المنبر - أي: مواجهة القبلة- نحو دار القضاء -وسميت فيما بعد دار القضاء لأنها بيعة لقضاء دين كان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه-، فاستقبل الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل"، وفي رواية "وتقطعت السبل، فادع الله يغيثنا".

وفي هذا جواز التحدث مع الإمام في الخطبة للحاجة، وكذلك القيام في الخطبة، وأما لا تنقطع بالكلام، ولا تنقطع بالمطر، والنبي عليه الصلاة والسلام كان حريصاً على مصلحة الناس، ولذلك كانوا يأتون إليه، وهو عليه الصلاة والسلام كان لا يتدنى بالسؤال من أصحابه تأديباً، ويأتي من أهل البادية من يسأله، فيستفيد الصحابة من هذه الأسئلة.

سئل النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة الشكوى للحال، كي يفزع إلى الله، فإن الله هو مفرج الكروب، وهو مزيل الخطوب، وهو كاشف الغموم سبحانه وتعالى، فهو الذي يدعى، وهو الذي يجيب عز وجل، لكن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الجاب؛ جعل ذلك الأعرابي يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ليسأل ربه، فليس النبي صلى الله عليه وسلم مقصوداً بالإجابة، وإنما هو مقصود ليسأل، وبثت الحال إليه كي تعظم مناشدته لربه، ويلجأ على ربه في الدعاء، وتستجلب الرقة التي انطوى عليها قلبه الرحيم، ونفسه الكريمة، فقام الناس فصاحوا، فيحتمل أنه أراد بذلك السائل، أو أنهم وافقوا ذلك السائل، وسألوا أيضاً فقالوا: "يا رسول الله قحط المطر -أي حبس-، واحمرت الشجر -أي يبست- وهلكت البهائم، هلكت المواشي، هلكت الكراع، -وهو الخيل-، وفي رواية: "هلك الشاء، فادع الله يسقينا"، "هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الناس"، وهذه من ألفاظهم في الروايات.

فلم يعودوا يجدون ما يعيشون به من الأقوات التي وفقدت؛ بسبب حبس المطر، وفي رواية عند أحمد: "أحلت الأرض، وقحط الناس"، وفي البخاري: "هلك المال، وجاع العيال" وعند النسائي: "تقطعت السبل، وهلكت الأموال، وأجذب البلاد" ضعفت الإبل عن السفر، فلم تعد تجد ما يقيم أودها، ونفذ ما عند الناس من الطعام. قال الرجل: "فادعوا الله يغيثنا" فهو الذي يغيثنا، وهذا دليل على ما استقر في قلوبهم، حتى العوام من أن الله هو الذي يفرج الكروب، وهو الذي يجيب دعوة المضطر، والنبي عليه الصلاة والسلام سبب للإجابة بدعائه المستجاب، "فادع الله يغيثنا، أو فادع الله يغيثنا" غاث الله عباده غيثاً، أي: سقاهم المطر، وأغاثهم أي: أجاب دعائهم، "فادع الله لنا أن يسقينا" وفي رواية: "فاستسقي ربك، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه حذاء وجهه يدعو، ومد يديه، قال أنس: حتى رأيت بياض أبطيه، يستسقي الله عز وجل، ورفع الناس أيديهم معه يدعون"

رفع الأيدي في الدعاء وتكرار الدعاء ثلاثاً:

وفي هذا: أن عدم رفع الأيدي في الدعاء للمؤمنين في الخطبة يستثنى منه الاستسقاء، فإنهم يرفعون أيديهم إذا استسقى الإمام في خطبة الجمعة.

وقد قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يرفع يديه في شيء من الدعاء -يعني في خطبة الجمعة- إلا في الاستسقاء، فإنه كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، وهذه الصفة الزائدة في الرفع إنما هي خاصة بهذا الموضوع في هذه الخطبة، وكذلك فإن تأمين المؤمن مع الإمام في دعاء الاستسقاء مشروع، ولا يكتفى بدعاء الإمام، ولذلك جاء في رواية: "ورفع الناس أيديهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون، فنظر إلى السماء، -أي النبي عليه الصلاة والسلام- وما نرى من سحاب، ثم قال: ((اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا))، وفي رواية ((اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا)) [الحديث بروايته رواه البخاري 1014، 1013، 1016، ومسلم 897، والنسائي 1515، وأبو داود 1176، وابن ماجه 1269، وأحمد 11608]، وهذا فيه استحباب تكرير الدعاء ثلاثاً، وكان عليه الصلاة والسلام إذا دعاء دعا ثلاثاً، وإدخال دعاء الاستسقاء في خطبة الجمعة سنة، وكذلك الدعاء به على المنبر، وأنه يمكن الاستسقاء بدون تحويل الرداء، ولا استقبال القبلة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان ظهره إلى القبلة لما رفع يديه، ووجهه للناس في خطبة الجمعة، وكذلك فإن من كفيات الاستسقاء المشروعة ما يكون في صلاة الجمعة بغير الصلاة المخصوصة للاستسقاء، وقد ورد كلاهما في السنة فتارة يفعل هذا، وتارة يفعل هذا، وقد ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء صيغ متعددة، فمن ذلك ما جاء عند أبي داود ((اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحيي بلدك الميت)) [رواه أبو داود 1176 حديث حسن]. وكذلك جاء عن كعب بن مرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال: استسقي الله لمضر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يقول: ((اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريعاً مريعاً، طبقاً غدقاً عاجلاً غير راثت نافعاً غير ضار))، [رواه أحمد 27689 وهو حديث صحيح].

وعن عطاء بن أبي مروان الأسلمي عن أبيه قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب نستسقي فما زاد عن الاستغفار [رواه ابن أبي شيبة 29486 وهو حديث صحيح]. فهذا من الاستسقاء أيضاً، {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} (سورة نوح 10-11).

قال أنس: "ولا والله ما نرى في السماء من سحاب -أي مجتمع- ولا قزعة -أي سحاب متفرق فالسما صافية لا يوجد فيها سحاب مجتمع ولا متفرق والقزعة قطع من السحاب أكثر ما يجيء في الخريف-، ولا شيئاً - أي من علامات المطر كالريح ونحو ذلك-".

قال: "وما بيننا وبين سلع -وهو الجبل المعروف بالمدينة- من بيت ولا دار - أي يحجب عنا الرؤيا، فنحن نشاهد السماء، وليس هنالك سبب للمطر أصلاً. وفي رواية: "وإن السماء لمثل الزجاج - أي في شدة صفائها-". قال أنس رضي الله عنه: "فطلعت من وراءه -فجأة بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنها نشأت من جهة البحر- سحابة مثل الترس -يعني في الاستدارة-".

وأقبلت سحابة الخير:

وفي رواية قال أنس: "فهاجت ريحٌ أنشأت سحابة مثل رجل الطائر - كأنها كانت صغيرة في أول ظهورها-: وأنا أنظر إليها فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت" بدأت صغيرة، ثم انبسطت لتعم الأرض بالمطر. قال: "فوالذي نفسي بيده ما وضعها -أي ما وضع النبي صلى الله عليه وسلم يديه الشريفتين من الدعاء- حتى فار السحاب أمثال الجبال يعني لكثرت، ثم لم يتزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم"، وهذا علمٌ عظيم من أعلام نبوته، وإجابة الله لدعوة نبيه، وإشارته عليه الصلاة والسلام اجتمع كرامة من الله لنبيه.

قال أنس: "فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً" وفي رواية: "سبعاً" وكانوا قبل الإسلام لما جاؤوا اليهود أخذوا من اصطلاحاتهم، واليهود تعظم السبت، وتطلق على الأسبوع سبتاً كما تطلق نحن على الأسبوع جمعة، فجمعة وجمعتان وثلاث جمع، ونقصد ثلاثة أسابيع، وهكذا بقي السحاب يحجب المطر أسبوعاً فمطرنا يوماً ذلك، ومن الغد، وبعد الغد، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، فمطرنا من جمعة إلى جمعة، غيمٌ مستمرٌ ماطرٌ من غير تقدم سحاب، ولا قزع، ولا سبب ظاهرٍ ولا باطن.

قال: "فمطرنا فخرجنا نخوض الماء فما كدنا نصل إلى منازلنا حتى رأيت الرجل قممه نفسه أن يأتي أهله"، من المهم كيف يصل إلى البيت من شدة المطر، قال: "وحتى أهم الشاب القريب الدار الرجوع إلى أهله حتى سألت مشاعب المدينة" أي: مسایل الماء، واضطرت طرقها أثماراً من كثرة المطر، وهذا فيه سعت كرم الله، وأن الخزانين بيديه، وأنه يرسل المطر، وأن ذلك يكون بالدعاء.

ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، قيل: هو الرجل الأول، وقيل: غيره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ يخطب فاستقبله قائماً، فماذا قال الرجل؟ وماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ إن ذلك دليل عظيم على منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه، وأن الله يجيب الدعاء، وأن الله لا يخيب ظن المؤمنين، وأن الله يكشف الكروب، وأنه الذي يسأل ويقصد، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يقدر على إنزال المطر، وهذا من توحيد الربوبية، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموحدین.

اللهم أجب دعوتنا، وثبت حجتنا، وآتنا سؤلنا، ونفس كروبنا، وأكرمنا ولا تهنأ، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية.

الحمد لله الكريم المتعال، أشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، شديد المحال، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه، وعلى الآل، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك محمد، أشهد أنه رسول الله اللهم بارك على ذريته وعلى آله وأزواجه وخلفائه، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، يا أرحم الراحمين.

اللهم حوالينا ولا علينا:

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يخطب في الجمعة التالية؛ دخل رجل يقول: "يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، واحتبس الركبان، وتهدمت البيوت من كثرة الماء"، وفي رواية: "هدم البناء، وغرق المال، وهلكت المواشي غرقت بسببها، إما لعدم الرعي؛ لأن الأرض قد غرقت بالماء، أو لعدم وجود ما يكن المواشي من المطر، أو انقطعت السبل، فتعذرت سلوك الطرق من كثرة الماء، فادعوا الله أن يمسكها - أي يمسك عنا المطر أو السحاب أو السماء-" وفي رواية: "أن يمسك عنا الماء" وفي رواية: "أن يرفعها عنا"، وفي رواية: "فادعوا ربك أن يجسها عنا، فضحك.

وفي رواية: "فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم لسرعة ملالة ابن آدم" وفي هذا جواز تبسم الخطيب على المنبر تعجباً من أحوال الناس، ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: ((اللهم حوالينا)) أي: اجعل المطر حوالينا، أو أمطره حوالينا، والمراد به صرف المطر عن الأبنية والدور. قال: ((اللهم حوالينا ولا علينا)) لأن سقوطه عليهم صار يؤذيهم، قال: ((اللهم على الآكام)) جمعة أكمة، وهو التراب المجتمع، وقيل: الهضبة الضخمة، وقيل: الجبل الصغير، وقيل: ما ارتفع من الأرض، ((والضراب)) وهو الجبل المنبسط غير المرتفع، وقيل: الرابية الصغيرة، ((ومنابت الشجر وبطن الأودية)) أي: التي إذا نزل فيها الماء انتفع به الناس، قال: ((ورؤوس الجبال))، وفي هذا أدب النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء، فإنه لم يسأل ربه أن يقطع المطر نهائياً من أصله، وإنما رفع الضرر فقط مع بقاء المنفعة فسأل ربه رفع ضرر المطر وكشفه عن البيوت، والمرافق، والطرق؛ لأن المطر إذا أغلق الشوارع صار مؤذياً، فسأل ربه رفع ضرره، وكشفه عن البيوت، والمرافق، والطرق، بحيث لا يتضرر به ساكن، ولا ابن سبيل يسلك الطريق، وسأل النبي عليه الصلاة والسلام ربه بقاء المطر في مواضع الحاجة، بحيث يبقى نفعه، وخصبه حالاً وآجلاً.

لا تشرع الصلاة للفيضانات:

وهكذا فإن من أنعم الله عليه بنعمة، فلا ينبغي له أن يتسخطها لشيء عارض آذاه منها، بل يسأل ربه رفع ذلك العارض مع بقاء النعمة، وأيضاً فيه: استحباب طلب انقطاع المطر عن المنازل، والمرافق إذا كثرت، وتضرروا به، ولكن لا يشرع لذلك صلاة مخصوصة، أو اجتماع في الصحراء، فلو قيل: هل تشرع صلاة مثل صلاة الاستسقاء للفيضانات؟

الجواب: كلا. لم يرد ذلك، ولكن الدعاء، ومن ذلك دعاء الخطيب في خطبة الجمعة، إذا أصاب الناس أذى بفيضانات، أو أعاصير ونحو ذلك.

قال أنس: بعد أدعية النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: اللهم حوالينا وعلى علينا، "فما هو إلا أن تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حتى تمزق السحاب، كأنه الملاء - وهو ثوب معروف - حين تطوى". قال: "حتى ما نرى منه شيء - يعني في المدينة، فأقلعت، فانقطعت" وفي رواية: "فتكشطت - يعني تكشفت السماء، أو السحابة الماطرة، وأمسكت المطر عن المدينة-".

قال: "فانجابت عن المدينة انجياب الثوب"، أي خرجت عنها كما يخرج الثوب عن لابس، "فجعلت تمطر حول المدينة، ولا تمطر بالمدينة قطرة، وجعل السحاب يتصدع عن المدينة فلقد رأيتنه ينقطع يميناً وشمالاً يمطرون أي أهل النواحي، ولا يمطر أهل المدينة يريهم الله كرامة نبيه وإجابة دعوته".

هذا كلام أنس رضي الله عنه فيما أرى الله الصحابة من منزلة النبي الكريم، هذا الحبيب العظيم، صاحب الشفاعة، وحامل لواء الحمد، أعبد الناس لله، وأخشى الناس لله، وأتقى الناس لربه، استمر المطر حول المدينة في الآكام، والضراب، وبطون الأودية لا في الطرق المسلوكة.

وهكذا يقول أنس رضي الله عنه: "وخرجنا نمشي في الشمس" المعجزة الباهرة للنبي عليه الصلاة والسلام، قال: "وسال الوادي شهراً" وفي رواية: "وسال وادي قناة - اسم الوادي - شهراً" من كثرة المطر، وهكذا كانت المعجزة لبنينا، يشير في أنحاء السماء، والسحاب يتمزق، ويتفرق بدعائه، وإشارته، كرامة من الله لنبيه عليه الصلاة والسلام.

أيها المضطر تعلم:

عباد الله، نتعلم من نبينا اللجوء إلى ربنا، نتعلم أثر الدعاء في قضاء الحوائج، وأثر الدعاء لرفع الضرر، ونزول الخير، أثر الدعاء، والله لا يجيب من رجاه ودعاه، {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} (سورة النمل 62)، يجيب المضطر فيتل المطر، ويكشف السوء، ويزيل الضرر سبحانه وتعالى ما أكرمه، وما أعظمه، ربكم رؤوف رحيم غني كريم، {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا} (سورة الإسراء 100)، والله عز وجل يعطي بلا حساب، ويمن على عباده بلا مقابل، وهو الكبير المتعال، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

اللهم إنا نسألك أن تسقينا الغيث يا رب العالمين، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أنزل علينا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم اجعلها سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا بلاء، ولا هدم، ولا غرق، اللهم أحبي بلدك الميت، واسق بمائتك يا رب العالمين، اللهم أغثنا برحمتك يا أكرم الأكرمين، الله إنا نسألك الأمن والإيمان والتوفيق لما تحب وترضى، اجعل بلدنا هذا آمناً مطمئناً وسائر بلاد المسلمين، وارفح عنا الغلاء، والوباء، والضراء يا سميع الدعاء، اللهم إنا نسألك رحمتك، ونسألك من كرمك وفضلك، اللهم إنا نسألك من جودك يا جواد يا كريم، اللهم اقض ديوننا، واستر عيوبنا، واكشف ما نزل بنا من ضرر، وما نزل بالمسلمين، اللهم ارفع البلاء عنا، وعن أمة محمد صلى الله عليه وسلم في العالمين، انصر من نصر الدين، واخذل الكفرة والمشركين، وأنزل بهم بأسك الذي لا يرد عن القوم الظالمين، اللهم انصر هذه الأمة، اللهم واجعل فرجها قريباً يا رب العالمين، آمناً في

الأوطان والدور، وأصلح الأئمة وولاة الأمور، واغفر لنا يا عزيز يا غفور، اللهم أصلح نياتنا، وذرياتنا، وبيوتنا، ونفوسنا، اللهم اجعل بيوتنا عامرة بذكرك، واجعل هذه الأجساد معمورة بطاعتك، اللهم إنا نسألك في ساعتنا هذه أن تخرجنا من ذنوبنا كيوم ولدتنا أمهاتنا، وفقنا لما تحب وترضى، واجعلنا مستمسكين بالعروة الوثقى، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.